٤ - تقييم حرب الاستنزاف

أصبح من المتفق عليه أن هناك أربع حروب نشبت بين إسرائيل والعرب ، وهى حرب فلسطين ١٩٤٨ - وحرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ - وحرب يونيو ١٩٦٧ - وحرب اكتوبر ١٩٧٣ ، مع تجاهل حرب الاستنزاف أو ذكرها بطريقة عابرة . واختلفت آراء الكتاب والمحللين الذين تناولوا مرحلة حرب الاستنزاف بالتحليل ، ووصفوها بأوصاف مختلفة . فالبعض وجه النقد للقيام بها لأنها لم تحسم الموقف بين مصر وإسرائيل عسكريا أو سياسيا ، أو لأننا - فى مصر - تكبدنا فيها خسائر كبيرة كنا فى غنى عنها حيث أنها كانت استنزافا لقدرات مصر و لم تكن استنزافا لقدرات إسرائيل . كما يرى البعض أن هذه الحرب كانت سببا فى تأخير حرب اكتوبر ١٩٧٣ لمدة ثلاث سنوات .

إن حرب الاستنزاف تعتبر أطول حرب نشبت بين مصر واسرائيل ، فقد استمرت لمدة عام ونصف - من مارس ١٩٦٩ حتى أغسطس ١٩٧٠ - استخدمت فيها القوات البرية والجوية والبحرية والدفاع الجوى . وكان لهذه الحرب هدفها السياسى وإستراتيجيتها العسكرية وعملياتها ذوات الطابع الخاص وتكتيكات تنفيذها كمرحلة من مراحل الصراع المسلح بين مصر وإسرائيل فى فترة ما بعد هزيمة يونيو ، وهى تختلف فى هذا المجال عن الحرب الشاملة .

ومن المعروف أن إستراتيجية[1] حرب الاستنزاف من الاستراتيجيات المعترف بها

(١) لواء طه محمد المجدوب - هزيمة يونيو . من النكسة حتى حرب الاستنزاف - ص ١٧٣ - ١٧٥

فى العلم العسكرى . ففى بعض الظروف السياسية والاستراتيجية ، عندما لا تتوفر القدرة على الحركة السريعة أويتأخر توفرها مع وجود عوامل أخرى قد تسبب تأخير العمل العسكرى المباشر سواء كانت هذه العوامل سياسية أو عسكرية ، تصبح إستراتيجية « الصراع طويل الأمد » هى إستراتيجية ملائمة فى ظل مثل هذه الظروف .

وقد أطلق الخبير العسكرى الفرنسى جنرال أندريه بوفر ، على نظرية حرب الاستنزاف ، « نظرية التعرية والتآكل » . ويقول بوفر إنه ليس ضروريا للصراع الذى يدور فى نطاق هذه النظرية أن يكون هدفه تحقيق انتصارات عسكرية مدوية ... ولكنه يتحقق بالنجاح فى المحافظة على استمرار الصراع وتصاعده المنظم الذى يتزايد ثقله وأعباؤه على العدو شيئا فشيئا . ويعتمد على دفع العدو نحو قبول ظروف شديدة القسوة بينما لا يستخدم ضده سوى وسائل محدودة ، ولكن بأساليب تتسم بالمهارة والمرونة ، مع استمرار العمل وتزايد ضغوطه المعنوية التى تؤثر على عناصر القوة العسكرية .

□ □ □

لقد كانت حرب الاستنزاف التى شنتها مصر ضد إسرائيل – بعد مرحلتى الصمود والدفاع النشط – ضرورة حيوية لقواتنا المسلحة ، حيث أن الدراسة الموضوعية لحرب الاستنزاف على المستوى الاستراتيجى والتعبوى لا يجب أن تقتصر على وقائعها وأحداثها ، ولكن أهميتها تكمن فى الآثار البعيدة التى تركتها هذه الحرب – امتداداً لمرحلتى الصمود والدفاع النشط – على أسلوب الاعداد والتخطيط لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وعلى الأداء الكفء لقواتنا المسلحة فى تلك الحرب وكان سمة بارزة من سماتها .

وبرغم أن بعض الآراء التى طرحت ، قد اعتبرت حرب الاستنزاف عملاً ضاراً لم يحقق الفائدة ، إلا أنى أرى أن هذه الحرب كانت ذات فائدة عظيمة ، وأن وقوعها كان هو التمهيد العملى الضرورى الذى ساعد على أن يصبح قرار حرب أكتوبر ١٩٧٣ أمراً ممكنا .

ومن هنا يمكننا القول إن حرب الاستنزاف استكمالاً لمرحلتى الصمود والدفاع النشط ، تعتبر هى المرحلة التحضيرية الحقيقية والعملية لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فى ظل الظروف التى كانت سائدة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

لقد أثبت المخطط والمقاتل المصرى ذاته خلال مرحلة ما بعد الهزيمة . كما أثبتت حرب الاستنزاف أن قوة صمود مصر وعدم تزعزع إرادتها ، وتمسكها بهدفها وهو تحرير الأرض ، كانت من العناصر الرئيسية لاستعادة الثقة بعد أن كادت هزيمة يونيو تقضى عليها .

ولا شك أن حرب الاستنزاف كانت عبئاً ثقيلاً على كل من مصر وإسرائيل ، ولكنها كانت أكثر فائدة لمصر وأكثر ضرراً لإسرائيل .

□ □ □

ومن الناحية السياسية ، كان شن هذه الحرب – من وجهة نظر مصر – معناه بقاء مشكلة الشرق الاوسط حية ، وأن تظل فى أولويات القوتين الأعظم والدول الكبرى . وكان معناه أيضاً أن إسرائيل ، برغم انتصارها الكبير فى حرب يونيو ، لن تتمكن من فرض إرادتها السياسية علينا لقبول المفاوضات المباشرة معها وتحقيق السلام بشروطها . بالاضافة لذلك ، فإن شن هذه الحرب كان بمثابة رسالة مستمرة إلى شعوب العالم أن مصر ودول المواجهة لم تنس أراضيها المحتلة ، وأنها ستعمل بكل الوسائل على تحرير الأرض بالقوة العسكرية إن فشلت الأساليب السياسية . وأخيراً فقد كان ذلك يعنى أننا – برغم الهزيمة المريرة فى يونيو – لم نفقد إرادة القتال ، ولا بد أن تدفع إسرائيل ثمن وجودها فى سيناء غالياً إلى أن يتم تحريرها بالقوة المسلحة التى لا تعرف إسرائيل غيرها . وهنا لا بد أن يكون واضحاً أنه لم يكن من أهداف حرب الاستنزاف – كجزء من الصراع المسلح بين حربى يونيو وأكتوبر – إرغام إسرائيل على الانسحاب من سيناء .

ولعل ما كتبه محمود رياض وزير الخارجية حينئذ ، يعطى صورة صحيحة عن أثر فترة حرب الاستنزاف عام ١٩٧٠/٦٩ على العمل السياسى ، قال[1] :

" لقد تميز الصراع كله خلال سنة ١٩٧٠/٦٩ بعلامتين بارزتين : حرب الاستنزاف ، والاقتراب إلى أدنى نقطة ممكنة من التسوية الشاملة كأسلوب صحيح لتحقيق السلام .

بالنسبة لحرب الاستنزاف كانت الخسائر الإسرائيلية فادحة ، وكانت التقارير العسكرية

(١) محمود رياض – مذكرات محمود رياض – ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

والمعلومات التى تصلنى عن طريق بعض المصادر الغربية تشير إلى نجاح حرب الاستنزاف فى تحقيق هدفها ..

وقد سجل إيبان وزير خارجية إسرائيل فى ذلك الوقت « إن وقف إطلاق النار قد تم استقباله فى إسرائيل بشعور من الرضا . وحينما أعلنت مسز مائير فى التليفزيون عن وقف إطلاق النار ، فإن رد الفعل الشعبى كاد يتساوى مع لو كنا قد توصلنا إلى تسوية سلمية . فنشرات الأخبار لن تبدأ بالصوت الحزين لمذيع الراديو ، وهو يذيع أسماء الشباب الإسرائيلى الذى سقط فى المعركة . إن خسائرنا فى الأفراد القتلى وفى المعدات الثمينة قد جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف بالنسبة لنا ... » .

ويستطرد محمود رياض قائلاً :

" ... من الناحية المبدئية جعلت الحرب استمرار الاحتلال الإسرائيلى مكلّفاً بشدة ، بحيث أن إسرائيل اضطرت إلى أن تقبل فى نهاية الحرب ما كانت ترفضه فى بدايتها ، وخصوصاً التراجع عن الحلول المنفردة وقبول مبدأ التسوية الشاملة . وأيضاً التراجع عن فرض المفاوضات المباشرة علينا وقبول المفاوضات غير المباشرة . وبصرف النظر عن التطورات التى حدثت بعد ذلك فعلاً ، فإن هذا هو ما قبلته إسرائيل عندما توقف إطلاق النيران فى نهاية حرب الاستنزاف ".

□ □ □

أما من الناحية العسكرية « فقد كانت حرب الاستنزاف[1] بكلِ متاعبها وخسائرها التى لحقت بنا فى الأفراد والمعدات ، هى البوتقة التى صهرت المقاتل المصرى وطوّرت خبراته وعالجت جروحه النفسية والمعنوية العميقة التى تركتها فيه هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وهى برغم ضراوتها والأضرار المادية العسكرية والاقتصادية التى تحملناها ، فإن نتائجها الايجابية كانت عظيمة الفائدة بعيدة الأثر فى التمهيد للنجاح الذى تحقق فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ » .

لقد كان من الضرورى أن تخوض قواتنا المسلحة حرب الاستنزاف وما سبقها من مراحل أخرى للقتال فى مرحلتى الصمود والدفاع النشط ، لتدريب القوات عمليا فى قتال فعلى ضد إسرائيل ، وهو ما يطلق عليه « التطعم للمعركة » لزيادة قدراتها على

(١) لواء طه المجدوب – هزيمة يونيو . من النكسة إلى حرب الاستنزاف – ص ٢٣٧ .

تحمل مشاق القتال ، وزيادة خبراتها العملية فى مواجهة المقاتل الإسرائيلى للتعرف على حقيقة عدوها وأسلوب قتاله ، واستعادة الثقة فى النفس والسلاح والقيادة . لقد خرجت القوات المسلحة بدروس مستفادة هامة خلال حرب الاستنزاف ، خصوصاً نقط قوة وضعف العدو ونقط قوة وضعف قواتنا .

ولقد ارتفعت القدرة القتالية لقواتنا المسلحة خلال فترة الصراع المسلح منذ أول يوليو ١٩٦٧ حتى توقفت حرب الاستنزاف فى أغسطس ١٩٧٠ ، بعد أن تعددت وتنوعت أساليب القتال — دفاعاً وهجوماً — بمعرفة كل أفرع القوات المسلحة ، وأصبح طبيعيا أن نتغلب على أوجه النقص ونقط الضعف لدينا ، والاستفادة بنقط القوة وتنميتها .

ومن ناحية أخرى ، فإن استمرار حرب الاستنزاف وفشل إسرائيل فى وقفها الأمر الذى أجبرها على استخدام معظم أسلحتها الحديثة ، وبصفة خاصة فى مجال القوات الجوية والحرب الالكترونية بعد أن استخدمتها على نطاق واسع . أتاح هذا الأمر لمصر الفرصة لاستكمال شبكة الدفاع الجوى وإنشاء حائط الصواريخ واختباره عمليا لحماية قواتنا فى الجبهة ، وتوفير الحماية للأهداف الحيوية بالدولة .

□ □ □

والحقيقة المؤكدة التى يجب توضيحها هى ، إنه بدون خوض معارك الصراع المسلح التى استغرقت ثلاث سنوات من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٠ ، والتى بدأت بمعارك الصمود وكان طابعها دفاعياً بالقليل المتيسر من الأسلحة ، ثم تدرجت إلى معارك الدفاع النشط وكان طابعها دفاعياً ايجابياً ، ثم تطورت إلى حرب استنزاف وكان طابعها دفاعياً وهجومياً بكل أنواع الأسلحة وبكل أفرع القوات المسلحة . أقول إنه لم يكن ممكنا لقواتنا المسلحة أن تقفز من حالة الإنهيار التام التى كانت عليها بعد حرب يونيو ، للقيام بعملية هجومية شاملة مع اقتحام مانع مائى ، وهى من أعقد العمليات العسكرية . ولم يكن ممكنا القيام بهجوم شامل ضد تفوق العدو الجوى قبل استكمال نظام الدفاع الجوى الذى لم يستكمل إلا فى أغسطس ١٩٧٠ ، بعد الحصول على الاسلحة الحديثة المتطورة من الاتحاد السوفيتى وإنشاء « إدارة الحرب الالكترونية » لأول مرة فى مصر لمواجهة التطور الذى أدى إلى استخدام المعدات والوسائل الالكترونية .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو : وماذا كان البديل لو لم نقم بحرب الاستنزاف كجزء من الصراع المسلح بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ؟

البديل هو أن نترك السياسة تلعب دورها لحل المشكلة بالطرق الدبلوماسية والسياسية ، وتقف القوات المسلحة سلبية فى انتظار النتائج ، وهذا يعنى أن تستسلم مصر لشروط إسرائيل . ومن المعروف أن الحرب إمتداد للسياسة بوسائل أخرى ، لذلك يتحتم دعم العمل السياسى بالعمل العسكرى فى حدود قدرة قواتنا المسلحة فى ذلك الوقت . وكانت النتيجة ما أوضحه محمود رياض وزير الخارجية عن التأثير الايجابى للعمل العسكرى على العمل السياسى .

ولقد وضعت حرب الاستنزاف إسرائيل فى مَوقف صعب عسكريا وسياسياً لا يمكنها الخروج منه . فلم تكن إسرائيل قادرة على حسم الحرب لصالحها برغم تفوقها العسكرى ، ولم تكن فى نفس الوقت راغبة فى الانسحاب من سيناء ، ولذلك لم يكن أمامها إلا خوض الحرب مرغمة مع استمرار نزيف الدم فى خسائرها البشرية – وهى نقطة ضعفها الرئيسية – أمام تصميم مصر على الاستمرار فيها برغم خسائرنا البشرية والمادية .

وعندما انتهت حرب الاستنزاف ، كانت مصر قد حققت فوائد كثيرة ودروسا مستفادة ثمينة ، وأصبحت الكفاءة القتالية للقوات الإسرائيلية كتاباً مقروءاً أمام قواتنا . ولعل من أبرزها أن إسرائيل اقتنعت بفشلها فى اسكات شبكة الدفاع الجوى ، ولم يصبح للسلاح الجوى الإسرائيلى حرية العمل بتأثير كما كان من قبل ، ومن هنا عاد الجيش الإسرائيلى إلى مستوى كفاءته الحقيقية فى القتال . وفى نفس الوقت أصبحت قواتنا قادرة على العمل بحرية تحت حماية الدفاع الجوى بالتعاون مع القوات الجوية ، عندما يصدر قرار الهجوم فى الوقت المناسب بالحرب الشاملة .

وكان من الطبيعى أن تتحمل مصر الخسائر فى حرب الاستنزاف ، وهو ثمن دفعناه على الطريق إلى حرب أكتوبر ، كما دفعت إسرائيل ثمن بقائها فى سيناء حتى نشوب هذه الحرب .

إنى أقول إن الوضع العسكرى والسياسى لمصر فى نهاية حرب الاستنزاف ، كان أفضل من وضعنا فى بدايتها . وفى الحقيقة ، فإن توقف القتال فى ٨ أغسطس ١٩٧٠ ،

لم يكن يعنى توقف عجلة الحرب ، ولكنه كان بداية مرحلة جديدة استعداداً لحرب أكتوبر ١٩٧٣ .

□ □ □

وفى إسرائيل ، اعترف قادتها بأن حرب الاستنزاف كانت ثقيلة عليهم بخسائرها ، وأن الجيش الإسرائيلى خسر هذه الحرب ، وأننا – فى مصر – استفدنا منها أكبر فائدة ، وأن هذه الحرب عبّدت لنا الطريق إلى حرب أكتوبر .

فقد قال إيبان وزير خارجية إسرائيل فى اجتماع لحزب العمل يوم ٢٩ أغسطس ١٩٧٠ « إن خسائرنا فى الأفراد القتلى وفى المعدات الثمينة ، جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف بالنسبة لنا ... ولولا وقف إطلاق النار لواجهت إسرائيل تصاعداً فى الحرب مع مصر ، وبالتالى زيادة القتلى والجرحى وتآكل التفوق الجوى الإسرائيلى » .

ونشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية فى سبتمبر ١٩٧١ حديثاً للعميد ماتى بيليد قال فيه « إن الجيش الإسرائيلى فشل من الناحية العسكرية فى حرب الاستنزاف ، وهذه أول معركة يهزم فيها فى ساحة القتال منذ قيام الدولة ، لدرجة أننا فى إسرائيل أمسكنا بأول قشة ألقيت إلينا وهى وقف القتال » .

وعبَّر الجنرال ويزمان – وزير الدفاع فيما بعد – عن رأيه فى حرب الاستنزاف ، كتب يقول فى مذكراته التى أعطاها اسم (على أجنحة النسور) :

- عندما وافق المصريون على إيقاف النيران فى أغسطس ١٩٧٠ ، فسرنا ذلك بأنه اعتراف منهم بأنهم لم يتحملوا القصف أكثر من ذلك . ومع عدم التقليل من الخسائر التى تحملوها نتيجة لهجمات سلاحنا الجوى ، فقد تحققت مخاوفى من أن حرب الاستنزاف التى أريقت فيها دماء أفضل جنودنا انتهت بأن أصبح للمصريين حرية العمل لمدة ثلاث سنوات للتحضير لحرب أكتوبر . وعلى ذلك ، فمن الجنون أن نقول أننا كسبنا حرب الاستنزاف ، وبالعكس فإن المصريين – برغم خسائرهم – هم الذين استفادوا منها أكبر فائدة .
- فى الفترة من ١٩٧٠ – ١٩٧٣ أخذ قادتنا (قادة إسرائيل) يرددون أننا كسبنا حرب الاستنزاف فأثروا على عقولنا ، بدلاً من القول إننا فشلنا فى تدمير شبكة

الدفاع الجوى المصرى ، وعلينا أن نستعد للتغلب عليها لأنها ستلعب دوراً حاسماً فى الحرب القادمة ، ولا بد من إيجاد وسيلة لاسكاتها . وهكذا عشنا فى الأوهام بدلاً من مواجهة الحقائق ... قد نكون نجحنا فى رفع الروح المعنوية للشعب ، ولكننا دفعنا الثمن غالياً .

- بينما كانت حرب الاستنزاف مستمرة دون أن يتمكن جيشنا من إيقافها ، أصبحت تدريجيا – وليس كالآخرين – مقتنعا بأنها المرة الأولى التى لم ننتصر فيها . لقد قلت مراراً إننا فشلنا فى هذه الحرب .

- سنظل نذكر أن حرب الاستنزاف هى الحرب الأولى التى لم تنتصر فيها إسرائيل ، وهى حقيقة عبّدت الطريق أمام المصريين لشن حرب يوم كيبور – حرب أكتوبر ١٩٧٣ .